

12- إثبات صفة اليبدين

[وقوله: { مَا مَتَّعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ } { ص: 75}. { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } { المائدة: 64}.]. الشرح * قوله: (وقوله: { مَا مَتَّعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ })، هاتان الآيتان أوردتهما المصنف -رحمه الله- لإثبات اليبدين لله سبحانه وتعالى -حقيقة على ما يليق به. * الآية الأولى: قوله تعالى في سورة " ص: " { مَا مَتَّعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ } فيها إثبات أن الله تعالى خص آدم -عليه السلام- بأنه خلقه بيديه سبحانه، فأثبت الله تعالى لنفسه يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وكماله، وقد حرف ذلك المعتزلة والأشعرية، فقالوا: المراد خلقته بقدرتي أو خلقته بنعمتي، يعني: أن المراد باليد: القدرة أو النعمة، ويجب عليهم بجوابين: الأول: بأن يقال لهم: أليس إيليس مخلوقا بقدرة الله؟ إذا يأتي إيليس يقول: وأنا يا رب خلقتني بقدرتك، فلا يكون لآدم فضيلة وميزة على إيليس؛ لأن الجميع مخلوقون بقدرة الله، وكذلك فإن الجميع مخلوقون بنعمته، ليس أحد مستقلا بنفسه، وكل منهم منعم عليه، فأليس قد أنعم الله عليه بخلقه وإيجاده، فكيف يقول الله تعالى لإيليس: اسجد لآدم الذي خلقته بنعمتي وقدرتي، مع أن إيليس مخلوق بنعمة الله وقدرته؟! فلو كان المراد باليد: النعمة والقدرة، لقال إيليس: وأنا كذلك يا رب خلقتني بقدرتك ونعمتك، فدل ذلك على تفضيل الله لآدم بأنه خلقه بيديه الحقيقيتين كما يشاء. الجواب الثاني: أن الله سبحانه وتعالى -ذكر " اليد" بلفظ المثني، فقال: { لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ } { ص: 75}. ولم يقل: " بيدنا"، بل ذكرها بلفظ التثنية، والله تعالى لا يوصف بأن له قدرتان فقط، فلا يقال: " بقدرتين"، لأن قدرة الله عامة شاملة ولا تحصر بعدد، وكذلك لا يقال: " بنعمتي"، لأن نعم الله كثيرة لا تعد، ولا تحصر باتنتين فقط، فدل ذلك على أن المراد بذلك إثبات يدين حقيقيتين لله تعالى كما يشاء. وبعض المبتدعة يقولون: إن المراد بقوله: { لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ } يعني: توليت خلقه، وليس المراد إثبات اليد، بل المراد إثبات تولي ذلك والعناية به. والجواب عن ذلك بأن يقال: إن جميع المخلوقات قد تولى الله خلقها، فلماذا ذكر الله ذلك في تمييز آدم على إيليس مع أن إيليس وادم قد تولى الله خلقهما جميعا؟ فدل ذلك على أن المراد باليدين هما الحقيقيتان على ما يشاء تعالى. وأما قوله تعالى: { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْيُ } { الذاريات: 47}. فالمراد بذلك: القوة، فليس الأيد جمع يد بل الأيد: هو القوة، وقد استخدمها العرب بذلك كما يقال: فلان له أيد، يعني: قوة، وفلان يملك أيدا، يعني: قوة، ولا يقال: فلان يملك أيدا، كما قال الله تعالى عن داود -عليه السلام- { ذَا الْأَيْدِ } أي: ذا القوة في عبادة الله، فليس المراد بالأيد هنا جمع يد، بل المراد بالأيد القوة. * الآية الثانية: قوله تعالى في سورة المائدة: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } { المائدة: 64}. قولهم: يد الله مغلوبة، أي: عن النفقة والعطاء، يعني: أنه لا ينفق، والعرب تعبر عن البخل بغل اليد، كما قال تعالى: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ } { الإسراء: 29}. أي: لا تجعل يدك مغلوبة بحيث إنك لا تنفق ولا تتصدق مما في يدك، وقوله: { وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ } يعني: لا تزد في النفقة إلى درجة الإسراف، فالمراد بقولهم: { يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ } يعني: عن النفقة، أي: لا ينفق بها -سبحانه وتعالى- فقال تعالى ردا عليهم: { عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } يعني: مسوطةتان بالعطاء وبالرزق وبالفضل على العباد، فالمقصود بسط اليد هو: كثرة العطاء وكثرة الإنفاق الذي هو أهله، فدل ذلك على إثبات اليبدين لله تعالى كما يليق بجلاله؛ لأن التعبير بسط اليد، وإن كان المقصود به كثرة النفقة والعطاء، لكنه لا يجوز إطلاقه إلا على من اتصف بهذه الصفة في الأرض. وقد وردت أيضا اليد بالجمع كما قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا } { يس: 71}. أي: مما خلقنا، فلماذا ذكرها الله بلفظ الجمع "أيدينا"؟ الجواب: أن ذلك يستخدم في لغة العرب للتعظيم والتخيم وليس للجمع، كما في قوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ تَزْلُ تَزْلُ الدُّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِطُونَ } { الحجر: 9}. فقوله: " إنا " يعني: الله نفسه، وذلك للتعظيم، فالذي يعظم نفسه، يذكر نفسه بلفظ الجمع، يقول مثلا: رحنا وخسرنا وأحضرنا وأمرنا وأعطينا، ومنعنا، ونحو ذلك، والضمير يعود على شخص واحد، فكأنه يعظم نفسه، والله سبحانه وتعالى -أحق بالتعظيم، وبأن يعظم نفسه، فكذلك قوله: { خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا } هنا بلفظ الجمع لأجل التعظيم، جمع اليد وأضافها إلي ضمير الجمع والمقصود هو ذات الله تعالى. وقد ورد ذكر اليد بصيغة المفرد كما في قوله تعالى: { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } { الملك: 1}. وقوله: { وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُهْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { آل عمران: 26}. والمقصود بها الجنس -جنس اليد- لا العدد، ووردت بلفظ اليمين كما في قوله تعالى: { وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ } { الزمر: 67}. ووردت بلفظ القبط، كما في قوله تعالى: { وَالْأَرْضِ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } { الزمر: 67}. فهذه الأدلة صريحة في إثبات اليد الحقيقية لله سبحانه وتعالى -وفيها رد على المعتزلة الذين يحرفونها كما يشاءون، فيقولون: إن المراد باليد: القدرة، أو النعمة، أو المراد بذلك: التحويل -التحويل الأمر- وليس هناك أمور حقيقة، وهذا كله من تحريف الكلم عن مواضعه وإضلال الله لهم. كذلك أيضا وردت في السنة أحاديث كثيرة صحيحة صريحة في إثبات اليبدين الحقيقيتين لله تعالى على ما يليق به، لا يستطيع المعتزلة وغيرهم تأويلها -تحريفها- كقوله -صلى الله عليه وسلم- { المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين مباركة، الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا } أخرجه مسلم برقم (1827) في الإمارة، باب: "فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر"، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. فقد ذكر هنا لفظ "اليمين" وذكر لفظ "اليدين"، ومعنى قوله: { وكلتا يديه يمين } من اليمين الذي هو البركة والخير، وكذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم- { يمين الله ملاي، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يعض ما في يمينه، ويده الأخرى القسط يخفض ويرفع } أخرجه البخاري برقم (7419) في التوحيد، باب: " وكان عرشه على الماء"، ومسلم برقم (993) [37]، في الزكاة، باب: "الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وذكر ابن كثير أحاديث كثيرة عند قوله تعالى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } { الزمر: 67}. في قبض الله للمخلوقات يوم القيامة، مثل قوله -عليه الصلاة والسلام- { يطوي الله السماوات بيمينه ويقبض الأرض بيمينه } أخرجه البخاري برقم (7382) في التوحيد، باب: "قول الله تعالى: (ملك الناس)"، ومسلم برقم (2787) في صفات المنافقين، باب: "كتاب صفة القيامة والجنة والنار"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. ومثل قول ذلك اليهودي للنبي -صلى الله عليه وسلم- " إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك " أخرجه البخاري برقم (7414) في التوحيد، باب: "قول الله تعالى: (لما خلقت بيدي)"، ومسلم برقم (2786) [19، 21]، في صفات المنافقين، باب: "كتاب صفة القيامة والجنة والنار"، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقوله -صلى الله عليه وسلم- { قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء } أخرجه مسلم برقم (2654) في القدر، باب: "تصرف الله تعالى القلوب كيف يشاء"، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وفي حديث آخر، قال -صلى الله عليه وسلم- { يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمين، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون، ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ } أخرجه مسلم برقم (2788) في صفات المنافقين، باب: "كتاب صفة القيامة والجنة والنار"، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه. وقال ابن عباس -رضي الله عنه- " ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم ". فتحصل لنا من هذه الآيات والأحاديث: أن لله يدين حقيقيتين كما يشاء، وأنه يقبض بهما ويبسط، ويرفع ويخفض، وأن له أصابع... إلخ. والغرض والقصد من تعلمنا ومعرفة هذه الصفات العلى لله -جل وعلا- عدة أمور: الأمر الأول: أنها صفات كمال ليس فيها نقص بوجه من الوجوه. الأمر الثاني: أنه يجب على المسلم أن يتبع النصوص ويصف الله تعالى بما وصف نفسه، أو وصفه رسوله، ولا يحرف ولا يعطل ولا يمثل ولا يتنبه. الأمر الثالث: أن فيها تعظيم للمتصف بها، سيما إذا اعتقد من وصفه بها عدم مشابهتها لصفات المخلوقين، واعتقد عظمتها وعدم إحاطة شيء من المخلوقات بها، فإن الإنسان متى اعتقد أن الله يقبض السماوات السبع بيمينه -مع عظمتها- والأرضين السبع بشماله مع سعتها، عرف عظمة خالقه وإلهه، ولم يجزؤ على معصيته. كيف يعصيه هذا الآدمي الضعيف، وكيف يخرج عن طواعيته، وكيف يبارزه بالمخالفة مع علمه بعظمة ربه وإلهه، ولهذا ورد عن أحد السلف أنه قال: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من تعصيه. فعلم العبد بعظمة الله، وتسميه بالأسماء الحسنى، واتصافه بالصفات العلى يحجزه عن معصية خالقه، ويدفعه إلى طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. والخلاصة: أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى يدين حقيقيتين تليق بجلال الله وكماله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تأويل ومن غير تشبيه ولا تمثيل.